فريق موقع الآجري للتفريغ

سلسلة تفريغات "الثالثة"

(٠٨)

شَرحُ

كِتَــابِ الكَبَــائِرِ وَتَبْيِينِ الْمَحَارِمِ

تَأْلِيف

الْحَافِظِ أَبِي عَبْدِٱللهِ مُحَمَّدِ بنِ أَحْمَدَ بنِ عُثْمَانَ بنِ قَايمَازَ الذَّهَبِيِّ

٦٦٣-٧٤٨ هـ

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

الكَبِيرَةُ السَّادِسَةُ: عُقُوقُ الْوَالِدَيْن

النسخة الإلكترونية الأولى

www.ajurry.com

[أشرطة مفرغة] ✍

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

[المتن]

الكَبِيرَةُ السَّادِسَةُ

عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ الآيات[الإسراء:٢٣-٢٥].

[الشرح]

ثمّ ذكر المصنف –رحمه الله– هٰذه الكبيرة، وهي كبيرة تتعلق بحقوق العباد، ما سبق يتعلق بحقوق الله، وهٰذه تتعلق بحقوق العباد، ولمّا بدأ ببعض الكبائر التي تتعلق بحقوق العباد، بدأ بالوالدين اللذَيْن هما أحق الناس بحسن الصّحبة وحسن المعاملة وطِيب المعاشرة وبالاهتمام، فبدأ بحق الوالدين، وهٰذا فيه لفت انتباه إلى أنهما أحق الناس بالبر والإحسان، وسيأتي معنا قول النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: ((**أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك أدناك**)) ، وفي الحديث قال: من أبر؟، قال: ((أمك))، قال: ثم من؟، قال: ((أباك)) إلى أن ذكر بعض القرابة، البدْء بالوالدين، والوالدة مقدمة وحقها أعظم.

فالمصنف بدأ بهٰذه الكبيرة التي تتعلق بهٰذا الحق العظيم الذي هو حق الوالدين، قال: (**الكبيرة السادسة: عقوق الوالدين**)، والعُقُوق: هٰذه الكلمة مأخوذة من العَقْ وهو الشَّق والقطع، وهنا سُمّيت الإساءة للوالدين والخروج عن البر الذي لهما عقّاً وقطعاً؛ لأنّ مَنْ أساء إليهما و لم يقم معهما بمقام الإحسان اللاّئق قد شقّ هٰذا الحق و قطعه –الذي هو حق عظيم للوالدين– شقَّهُ و قطعه؛ ولهٰذا سُمِّيَ من لا يَبَرُّ والديه ولا يقم بحقهما "عاقًّا"؛ لأنه قطع وشق هٰذا الحق الذي جعله الله – تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ– للوالدين جزاء إحسانهما ومعروفهما وجميلهما الذي تحقق لهٰذا الولد على يديهما، فقال: (**عقوق الوالدين**)، ثمّ أخذ يذكر بعض الأدلة على ذلك.

فذكر قول الله -عزّ و جل-: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وفي الآية قَرْنُ الإحسان للوالدين بحقه -جلّ وعلا- وهو التوحيد، وهٰذا يأتي في القرآن كثير؛ كقوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[لقمان:١٤]، وقوله: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[النساء:٣٦]، وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الأنعام:١٥١]، فيأتي في القرآن في مواضع قَرْنُ حق الوالدين بحقه -جلّ و علا-، وهٰذا فيه بيان عظم حق الوالدين والواجب الكبير الذي جعله الله – تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- لهما .

قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ هٰذه الكلمة التي طُلِبَ من العبد أن يُحققها مع والديه تتناول كل بر، فليس البر المطلوب للوالدين والإحسان المطلوب للوالدين نوعاً واحداً أو مجالاً واحداً؛ بل هو مجالات، فكل مجال من البر والإحسان، وحسن المعاملة، وطِيب المعاشرة، وغض الصوت، والرفق والإحسان إلى غير ذلك؛ كله داخل تحت قوله: ﴿إِحْسَانًا﴾، فكل ما كان من الإحسان والبر وطيب المعاملة فالوالدان أحق به، وإذا أراد الإنسان في هٰذا المقام ضابطاً لنفسه يعلم من خلاله ما هو الإحسان الذي ينبغي للوالدين، فأحسن ضابطٍ أظنه في هٰذا المقام أن يتصور الإنسان نفسه أنه هو الوالد، أو يتصوّر أنه هو الوالدة، ويتذكر ماذا قدّم لهٰذا الولد، ويستحضر ماذا قدمت الوالدة لهٰذا الولد، فيتذكر الحمل وأتعابه، والوَضْع وشدته، والرضاعة ومكابدتها، الرعاية...إلخ، يتذكر هٰذه الأمور، ثمّ لمّا يتذكرها ويستحضرها تماماً، ينتقل إلى مرحلة ثانية وهي أن ينظر ماذا يريد إذا كان في هٰذا المقام، فكل ما يريده لنفسه إذا كان هو في هٰذا المقام يقدّمه لوالديه، هٰذا المعنى الذي أُشير إليه يدل عليه قول النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : ((**أن تأتي للناس الشيء الذي تحب أن يؤتى إليك**))، فهٰذا هو حسن البر وحسن المعاملة، أن تأتى للوالدين الشيء الذي أنت تحب أن يؤتى إليك لو كنت والداً، فلو كنت في مقامهما ماذا تريد لنفسك؟ هل تريد لنفسك أن تربي ولدك وتحسن رعايته وتحسن إطعامه والإنفاق عليه، وأيضا الأم والشدة التي كانت منها، والمعاناة الطويلة في الحمل تسعة أشهر، معاناة في حمل الجنين في بطنها؛ في قيامها؛ في قعودها؛ في نومها، مكابدة ما يعلمها إلا الله، ثمّ الوضع وشدَّته ثمّ الرضاعة، ثمّ سهر الليل حتى إنّ ابنها يمرض وتتمنى لو أنّ المرض فيها وليس فيه، ثمّ يكبر الابن وينسى هٰذا المعروف كله وهو ينسى هٰذا الإحسان.

فالشاهد أن بر الوالدين يكون باستحضار هٰذا الأمر، وتأملّوا هٰذا المعنى الذي أشير إليه في الوصيَّة التي جاءت في سياق وصية لقمان لابنه في سورة لقمان، قال الله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[لقمان:١٤]، وفي الآية الأخرى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[الأحقاف:١٥]، فهٰذه الأمور تعين على البر، و لهٰذا ذكّر الله بها في القرآن، هٰذه الأمور استحضارها وتذكّرها يعين على البر، والغفلة عنها توقع في العقوق؛ لكن إذا استحضرها وأوردها على ذهنه، لو تجلس قليلا مع نفسك وتستحضر ما كان من معاناة من والدتك على وجه الخصوص ومن الوالد، والتّعب الشديد الذي كان، وتفكّر قليلا في الحمل ما هو؟ في الوضع ما هو؟ في الرضاعة ما هي؟ من غذائها تعطيك، ومن طعامها تطعمك، وأنت في رحمها وبعد أن ولدت، و لّما تتذكر هٰذا الجميل السابق، البر يتحرك في القلب؛ لكن إذا نسيَ الابن الجميل السابق هٰذا كله وغاب عن ذهنه، ثمّ جاء يوم من الأيام وكان يريد حاجة في البيت ما تحقّقت، أمام هٰذه الحاجة التي يطلبها ويريدها ينسى المعروف بالكامل ويقول: ما رأيت خيراً قط، والبيت هٰذا ما رأيت منكم خيراً وما قدمتم لي شيئا، ينسى كل الخير أمام حاجة أو حاجتين أو ثلاث يريدها و لم تتحقق وهٰذا من العقوق، وهٰذا من العقوق، وباعثه نسيان الجميل السابق.

ولذلك فإنّ أنفع ما يكون في هٰذا الباب على الإنسان أن يستحضر دائماً هٰذه المعان ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾[لقمان:١٤]، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[الأحقاف:١٥]، ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾[لقمان:١٤]؛ يعني مدّة الرضاعة الطويلة عامين، فهٰذه الأمور حقيقة يعني تُشعِر لهــٰذا.

أحد الإخوة قال لي مرةً أنه عمل تجربة هو أراد أن يستفيد منها، قال: أنا يوما من الأيام أردت حقيقة أن أستحضر وأعرف ماذا قدمت لي الوالدة في الصغر من المعروف، يقول: أنا في غفلة عن هــٰذا، يقول: فيومًا من الأيام، من الفجر قلت لزوجتي: ولدي –وكان عمره سنة تقريبًا أو سنتين– قال: كل الأمور التي تتعلق به عندي، أنا الذي سأقوم بها، لا تفعلي معه أيَّ شيء، يقول: والله عانيت معاناة وتعبت تعبا شديدا في ذلك اليوم، –يعني: في تنظيف الوسخ الذي يخرج منه، في غذائه، في تسكيته إذا بكى، في تنظيف الــ..– يقول: عانيت معاناة في ذلك اليوم، ودخلني شعور، وإحساس بمعروف قُدِّم لي في الصغر، نسيته في كبري وانشغالي بأمور الحياة، نسيته تمامًا، لكن يقول: قمت بهــٰذا العمل أريد أن أتذكَّر.

ولو لم يعمل الإنسان هـٰذا الأمر يقرأ القرآن، يقرأ ما أرشده الله إليه في القرآن، مثل هـٰذه الآيات ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾[لقمان:١٤]، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[الأحقاف:١٥]، يقرأ هـٰذه الأمور ويقرأ هـٰذه المعاني، فهي التي تحرِّك في قلبه البر وإذا نسيها نسي البر.

أيضا يحرك في القلب البر أمر جاء أيضا في القرآن في هـٰذا الموضع -موضع البر بالوالدين- وهو قوله: ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[لقمان:١٤]، يعني تَذَكَّر أنَّ المرجع إلى الله، وأمامك نصوص كثيرة أورد المصنِّف جملة منها هنا في عقوبة العاق، فالعقوق لا يذهب ويضيع، بل أمام الإنسان عقوبة، وعقوبة معجَّلة في الدنيا وعقوبة مؤجَّلة يوم القيامة ((**لا يدخل الجنة عاق**)) سيأتي معنا، ويأتي معنا نصوص، فإذن تَذَكّر أمرًا ماضيًا وتَذكر أمرًا مستقبلاً، فهـٰذا التذكر العظيم هو الذي -حقيقة يعني- فيه علاج للعقوق الذي يقع ولنقص البر الذي يقع، أن يتذكر هذين الأمرين ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾:

فقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ هـٰذا تَذَكُّر الماضي والجميل، السابق والإحسان المتقدم من الوالدين، فهـٰذا يعين على البر.

و قوله: ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ أمر يتعلق بالمستقبل: تَذَكُّر أنَّ المصير إلى الله والمرجع إلى الله وأنه سيحاسبك على هـٰذه الأمور التي قدمتها؛ أمرك بالبرِّ و لم تبر، نهاك عن العقوق ووقعت في العقوق، والحساب شديد عندما يقف الإنسان بين يدي الله -جل وعلا-.

ثم قال: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾[الإسراء:٢٣]، هنا تكبر المشكلة، إذا كبر الوالدين دخلهما الضعف وأصبحا بحاجة إلى الرعاية والعناية والمتابعة، والابن كبر وشبَّ ودخل في معمعة الحياة ومشغالها، والأولاد والمصالح الخاصة، وأموره وحاجياته، في مثل هـٰذه المرحلة هي المحكُّ في الغالب في باب البرِّ، ويتميَّز، وتظهر المعادن وأصناف الناس في مثل هـٰذا المقام وفي مثل هـٰذا المحكِّ، فإذا وصلا إلى هـٰذه المرحلة ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ لَمَّا يكون الأب نشيط وشاب وتعامله مع ابنه في نشاط وليس محتاجًا للابن، في مثل هـٰذا المقام ما تظهر معالم البرِّ والحاجة إليه؛ لأن الأب في نشاطه وفي قوته، وربما هو الذي يقدم الخدمات والمساعدات للابن؛ لكن هنا المحكُّ وموضع الاختبار: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا﴾، وكثير من الناس يسقط في هـٰذا الامتحان، وكثير منهم يملّ بسرعة ويتضجّر من الحاجة التي يحتاجها والده في كبره.

أنسي هـٰذا المتضجر أنه إذا كتب الله له الحياة وأمدَّ الله له في العمر سيكون مثلهما وسيكون في حاجة شديدة مثلهما، كما أنه الآن في نشاطه هما أيضًا في يوم من الأيام كانا في نشاطهما وقوهما، بل أنشط منه وأقوى، لكن هـٰذه سنة الله الماضية في خلقه، فأنت الآن ستكون يومًا من الأيام مثلهما في الكبر وستكون -إن مدَّ الله في عمرك- ستكون طاعنًا في السن، لن يبقَ لك الشباب ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾[الروم:٥٤]، هـٰذا الذي سيكون، إن كُتبت لك حياة ستكون ضعيفًا وتكون محتاجًا لرعاية الأولاد والأبناء، فَيَصِلُ هـٰذا المحك والاختبار هنا ليس في حال نشاط الأبوين، الاختبار هنا فيما ذكره الله في قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ كثير من الناس هنا يسقط، وتظهر منه مراتب العقوق وعلامته، يسقط هنا؛ ولهـٰذا جاء التأكيد على مرحلة الكبر والتنبيه عليها من رب العالمين وخالق الخلق أجمعين – تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- قال: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ لماذا؟ لأن حالة الكبر وضعف الكبير ووهنه، وربما بعضهم تكثر مطالباته، ويضعف رأيه، ويضعف فكره؛ بل يصبح في عقلتيه قد رُدَّ إلى أرذل العمر في تعامله في مطالباته، يعني أشياء قد تكون مزعجة لكثير من الناس؛ فلا يحتمل فيبدأ يظهر التضجر والتنفّر والتأفف والنهر وأشياء من هـٰذا القبيل.

وبعضهم في مثل هـٰذا الامتحان الذي يسقط فيه يلقي بوالديه في دار العجزة، ويتخلص منهما بأي طريقة، وبعضهم يضع والديه في دار العجزة ولا يأتيه، يعني لقيت أنا في بعض دور العجزة من أبناؤه وهم يمشون وأحياء ونشطاء، وعندهم أموال، لهم عشر خمس عشرة سنة ما رأوا والدهم، وربما يموت ما يدرون عنه ويدفن ما ..، ولا كأنه كان أبًا لهم، ولا كأنها كانت أمًا، ما هـٰذا؟!

فهـٰذا عرضة لعقوبة شديدة في الدنيا يراها أمثال هؤلاء، وعقوبة شديدة يوم القيامة عندما يلقون الله ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

فعقوق الوالدين كبيرة من الكبائر وعظيمة من العظائم، ولها عقوبة شديدة عند الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، في الدنيا معجَّلة، و في الآخرة معجلة للعاق.

قال: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾، ﴿أُفٍّ﴾ هـٰذه كلمة يؤتى بها للتضجُّر والتململ، وهي قريبة من اللسان؛ يعني يتنفس من الصدر من الضجر الذي فيه، فيخرج هـٰذه الضجر تأففا من فمه، فعند

المطالبة أو مطالبتين أو عرض حاجة معينة، وقد تكون الحاجة لمصلحته هو، فلقلة رعايته لهٰذا المقام يفرز هٰذه الكلمة فيقول: "أف" فنهى الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– عن ذلك.

وانظر وصية الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– العظيمة بالوالدين، رب العالمين يقول: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ يعني إياك والتململ والتضجر وإخراج مثل هٰذه الكلمات، فإذا كانت "أف" التي هي إخراج هٰذا الصوت من الهواء على وجه التململ والتضجر ينهى الله عنه، فكيف والعياذ بالله بسب الوالدين؟! فكيف بمجابهتهما بالشتم و اللعن؟! وسيأتي ما يتعلق بهٰذا، يسب والديه ابتداءً، فيبادرهما بالسب واللعن أو الكلمات البذيئة أو الألفاظ السيئة والعياذ بالله.

قال: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ النَّهر: هو الزجر ورفع الصوت والتعالي عليهما ومنعهما، من فعل شيء أو بصوت، حتى ولو كان يريد أن ينهاهما عن منكر لا يجوز له أن يرفع الصوت عليهما؛ الله –جل وعلا– قال: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، ما قال: فعُقَّهما، قال: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ يعني حتى لو بلغا هٰذا المبلغ، قال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ ما قال: عقهما. فكيف بالأبوين المسلمين الصالحين المستقيمين الذين قدما للابن الخير الكبير والإحسان والجميل؟ قال: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[الإسراء:٢٣] و لم يحدد، فهٰذا يشمل كل كلمة حلوة كل لفظة عذبة وكل عبارة طيبة تقدمها للوالدين.

وبعض الناس يكون موفق في انتقاء أطايب الكلام مع أصحابه، يأتي عنده زميله الذي لم يقدم له من المعروف شيء، فإذا أراد أن يحدثه بشيء: "يا أخي الكريم، من فضلك، ممكن، تتكرم عليَّ بكذا" بصوت هادئ وبعبارة منخفضة، وبأدب جم. ثم يدخل البيت ويأتي بوجه آخر: أنتِ كذا، وبصوت عالٍ، وبكلام بذيء، ولَمَّا يأتي عند صديقه، وربما هٰذا الصديق ما عرفه إلا من شهر أو من شهرين، فيأتي بصوت هادئ وبعبارة متطامنة وبكلمات جميلة وعذبة، وربما أصدقاءه يقولون: هٰذا ليس له مثيلا في حسن الأخلاق؛ لكن لو رأوا معاملته في البيت مع أمه لعرفوا أنه من أسوأ الناس خلقا؛ لأن هٰذا الكلام الجميل وهٰذه المعاملة الطيبة وهٰذا الخلق الطيب أحق الناس به الوالدين من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: ((**أمك**)) هٰذه الكلمة ينبغي أن تُفقه، يعني كل هٰذا اللطف وكل هٰذا الرفق، وكل هٰذه المعاملة الجميلة والطيبة التي يقدمها الإنسان لزملائه ورفقائه وإخوانه

أحق الناس بها الوالدين، فعند الزملاء تفيض العبارات الجميلة، وعند الوالدين يكعّ عنها ولا يتمكن من الإتيان بشيء منها، ولا يحسن أن يتلفّظ، ومجرد ما يريد شيء: أعطوني كذا، هـٰذه الكلمة ما يقولها لزميله، يُقدِّم قبلها بأربع خمس ست كلمات من التلطف حتى يصل إلى هـٰذه الحاجة، الوالدان أحق بهـٰذا، الوالدة هي الأحق أن تقول لها: يا أمي الكريمة، يا والدتي.

[المتن]

وَقَالَ تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا..﴾ الآية[العنكبوت:٨].

وَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: ((أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟...)) فَذَكَرَ مِنْهَا عُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَقَالَ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ–: ((رِضَا اللهِ فِي رِضَا الْوَالِدِ، وَسَخَطُ اللهِ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ)). صَحِيحٌ.

وَعَنْهُ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ–: ((الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَاحفَظْ، وَإِنْ شِئْتَ فَضَيِّعْ)). صَحَّحَهُ التِرْمِذِيُّ. وَعَنْهُ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ–: ((الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ)).

وَجَاءَهُ[1] رَجُلٌ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْجِهَادِ مَعَهُ فقال: ((أَحَيٌّ وَالِدَاكَ ؟))، قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: ((فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ)).

وَقَالَ: ((أُمَّكَ وَأَبَاكَ وَأُخْتَكَ وَأَخَاكَ وَأَدْنَاكَ أَدْنَاكَ)).

وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: ((لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ، وَلَا مَنَّانٌ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَلَا مُؤْمِنٌ بِسِحْرٍ)).

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولُ اللهِ! مَا الْكَبَائِرِ؟ قَالَ: ((الْإِشْرَاكُ بِاللهِ)). قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟، قَالَ: ((ثُمَّ عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ)). قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ((ثُمَّ الْيَمِينُ الْغَمُوسُ)).

[الشرح]

هـٰذه النصوص والأدلة ساقها المصنف –رحمه الله– من كتاب الله –جل وعلا– وسنة النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لبيان مقام الوالدين ومالهما من الحق العظيم والواجب الكبير من الأبناء اتجاههما.

---

[1] في نسخة ب عند مشهور وأثبتها "وقال –عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ– وجاءه.."

وحقيقة الآية التي صدر المصنف ذكرها في هـٰذه الترجمة أو في الكلام على هـٰذه الكبيرة آية عظيمة جدًا.

ومن الأمور التي ينبِّه عليها أهل العلم والمفيدة في هـٰذا الباب: مداواة النفس بالقرآن، بمعنى أن الإنسان ينظر إلى جوانب الخلل التي عنده والنقص ويداوي نفسه بالآيات.

فمثلا: من كان عنده عقوق أو تقصير يداوي نفسه بهـٰذه الآية بأن يقرأها ويكرِّر التدبر لها والتأمل في معانيها ودلالاتها، ويستعين بكتب التفسير وأقوال أهل العلم حتى تتحقق له هداية القرآن التي قال الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– عنها: ﴿إِنَّ هـٰذا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء:٩]، وهداية القرءان تُطلب بتدبره ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[النساء:٨٢]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد:٢٤]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾[المؤمنون:٦٨]، فهداية القرءان تُطلب بتدبره ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[ص:٢٩]، فما يكفي الإنسان أنه يمر عليها مرورًا دون أن يتأمّل ودون أن يتدبر ودون أن يتفكر في المعاني والدلالات.

فحقيقة مثل هـٰذه الآية لما تقف عندها مرة ومرتين وثلاث وأربع وتراجع كتب التفسير وتنظر في حالك، وتعرض حالك على الآية وتنظر ما هو حظك من الآية.

بمثل هـٰذه الطريقة يكون العلاج، فهـٰذا دواء ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾[الإسراء:٨٢]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾[فصلت:٤٤]، ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾[يونس:٥٧]، هو دواء؛ ولكن نحتاج إلى أن نتعالج، وطريقة التعالج وطلب الشفاء بالقرآن بأن يتدبر ويتفكر ويتأمل، ويعرض الإنسان نفسه وحاله وموقعه: ما هو موقعي من هـٰذه الآية؟ وتنظر معاملتك، فإذا كانت الأمور حسنة وطيبة تحمد الله وتزيد، وإذا كان هناك تقصير فأمامك الفرصة مفتوحة والمناسبة سانحة.

[المتن]

وَعَنْهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– قَالَ: ((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ وَلَا مُكَذِّبٌ بِالْقَدَرِ)).

وَرَوَى عِيسَى بْنُ طَلْحَة بْنُ عُبَيْدِ الله، عَنْ عَمْرُو بْنِ مرَّةَ الْجُهَنِيّ–رَضِيَ الله تَعَالىٰ عَنْهُ– أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ الله! أَرَأَيْتَ إِنْ صَلَّيْتُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَصُمْتُ رَمَضَانَ، وَأَدَّيْتُ الزَّكَاة،

وَحَجَجْتُ الْبَيْتَ، فَمَاذَا لِي؟، قال: ((مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالحين إِلَّا أَنْ يَعِقَّ وَالِدَيْهِ)).

وَعَنْ بَكَّارِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ،قال: حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ مَرْفُوعاً: ((كُلُّ الذُّنُوبِ يُؤَخِّرُ اللهُ مِنْهَا مَا شَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ؛ فَإِنَّهُ يُعَجِّلُ لِصَاحِبِهِ)).

وَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِداً إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكاً فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ)). رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَعَنْهُ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ– بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ قَالَ: ((لَعَنَ اللهُ الْعَاقَّ لِوَالِدَيْهِ)). وَقَالَ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: ((الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ)). صَحَّحَهُ الْتِرْمِذِيُّ.

وَعَنْ وَهْبِ بْنِ منبه قَالَ: إِنَّ اللهَ قَالَ: ((يَا مُوسَى! وَقِّرْ وَالِدَيْكَ؛ فَإِنَّ مَنْ وَقَّرَ وَالِدَيْهِ مَدَدتُ فِي عُمُرِهِ وَوَهَبْتُ لَهُ وَلَداً يَبرّهُ، وَمَنْ عَقَّ وَالِدَيْهِ قَصِرْتُ عُمُرَهُ وَوَهَبْتُ لَهُ وَلَداً يَعُقَّهُ)).

وَقَالَ كَعْبُ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ اللهَ لَيُعَجِّلَ حَيْنَ[١]الْعَبْدِ إِذَا كَانَ عَاقًّا لِوَالِدَيْهِ لِيُعَجِّلَ لَهُ الْعَذَابَ، وَإِنَّ اللهَ لَيُزِيدَ فِي عُمُرِ الْعَبْدِ إِذَا كَانَ بَاراً بِوَالِدَيْهِ لِيُزِيدَهُ بِرًّا وَخَيْراً".

وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ: "قَرَأْتُ فِي التَّوْرَاةِ: مَنْ يَضْرِبَ أَبَاهُ يُقْتَلُ".

وَقَالَ وَهْبُ: " قَرَأْتُ[٢] فِي التَّوْرَاةِ: عَلَى مَنْ صَكَّ[٣]وَالِدَهُ الرَّجْمُ[٤]".

[الشرح]

فهـذه كلها نصوص في هـذا الباب العظيم.

والمصنف –رحمه الله– لم يذكر جميع ما ورد؛ لأن ما ورد في الكتاب والسنة في هـذا المقام أكثر من هـذا بكثير، وقد أفرد بعض أهل العلم مصنفات واسعة في جمع النصوص والأدلة –أدلة الكتاب والسنة– فيما يتعلق ببر الوالدين.

---

[١] حَيْن: الْحَيْن، بالفتح: الهلاك. وقد حان الرجل: أي هلك.

[٢] ليس في نسخة مشهور "قرأت" لكن " في التوراة"

[٣] صَكَّ: ضرب.

[٤]وفي هامش ((ب)): نعم وبعض العقوق أكبر من بعض. ومنه قول النبي– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ)). قَالُوا:يَا رَسُولَ اللهِ! كَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟، قَالَ: ((يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيسب أُمَّهُ)).

واقتصر المصنف –رحمه الله– على بعض النصوص الواردة في هـٰذا الباب، وكما قدمت بدأ بهـٰذه الآية العظيمة من سورة الإسراء، وكما أيضا قدمت كم نحتاج إلى مداواة النفس بعرضها على مثل هـٰذه الآيات والتفكر فيها مرات وكرات، مع رجاء الهداية والتسديد والتوفيق من الله –جل وعلا–.

ثم أورد –رحمه الله– قول الله –عز وجل–: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾[العنكبوت:٨] في سورة العنكبوت ثم ساق بعض الأحاديث.

الحديث الأول فيه: أن عقوق الوالدين كبيرة، بل هو من أكبر الكبائر، وهو نظير ما جاء في القرءان، قُرن حق الوالدين بحقه لأنه قال – عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ–: ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟)) قلنا: بلى يا رسول الله. قال: ((الإشراك بالله وعقوق الوالدين)) فهـٰذا نظير ما جاء في القرآن، قرن حق الوالدين بحقه– سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ–.

أيضا نظير ذلك الحديث الذي يليه (وَقَالَ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ–: ((رِضَا اللهِ فِي رِضَا الْوَالِدِ، وَسَخَطُ اللهِ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ)).) والوالد يتناول الأم والأب في الحديث..

قال : (وَعَنْهُ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ–: ((الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ،)).) وهـٰذا أيضا فيه مكانة الوالدين، وأنهما باب من أبواب الجنة فيمن قام ببرهما ووفى بحقهما.

ونلاحظ أن النصوص المتعلقة بالوالدين فيها الترغيب والترهيب؛ الترهيب بالعقوبات الشديدة المعجلة والمؤجلة للعاق، والترغيب بذكر الثواب العظيم في الدنيا والآخرة لمن بر بوالديه.

قال: (((الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَاحْفَظْ، وَإِنْ شِئْتَ فَضَيِّعْ)).) يعني إن شئت احفظ هـٰذا الباب، وإن شئت ضيعه، الأمر بيدك الآن ما دمت في دار العمل، وقد تبقى في دار العمل ويفوتك حظا ونصيبا من هـٰذا الباب؛ بل يفوتك الحظ الأوفر والنصيب الأكبر إذا فقدت والديك، وكثير ما يقع الندم هنا على التفريط بدون فائدة.

قال: (وَعَنْهُ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ–: ((الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ)).) هـٰذا بهـٰذا اللفظ لم يثبت عن النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، ولكن ثبت عنه فيما ما معناه قوله – عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ– للرجل قال: ((هل لك أم؟)) قال: نعم، قال: ((فألزمها فإن الجنة تحت رجليها)). فهـٰذا من أعظم

ما يكون في حق الأم وما لها من واجب من بر وإحسان من الأبناء. وأيضا يشهد هـٰذا المعنى الحديث المتقدم ((الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ)).

ثم أورد الحديث في الرجل الذي استأذن النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- (فِي الْجِهَادِ مَعَهُ فقال: ((أَحَيٌّ وَالِدَاكَ ؟))، قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: ((فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ)).) وهـٰذا فيه أنه يشترط في الجهاد الكفائي وليس العيني أن يستأذن الأبوين ولا يخرج إلا بإذنهما؛ قال: ((فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ)).

ثم أورد قول النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((أُمُّكَ وَأَبَاكَ وَأُخْتُكَ وَأَخَاكَ وَأَدْنَاكَ أَدْنَاكَ)) يعني هـٰذا رعاية الحقوق، وقدَّم حق الأم ثم الأب ثم الأخت ثم الأخ، ولاحظ هنا تقديم الأخت على الأخ؛ لأن المرأة أضعف وهي أحوج؛ ولهـٰذا قدمت على الأخ في الحديث، المرأة ضعيفة وهي أحوج من الرجل، ولهـٰذا قدمت الأخت على الأخ، قال: ((وَأَدْنَاكَ أَدْنَاكَ)) يعني تراعي حقوق القرابة بحسب الأدنى فالأدنى والأقرب فالأقرب.

ومثل هـٰذا الحديث الآخر الذي سُئل فيه النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ -يعني طيب المعاملة- قال: ((أمك))، قال:ثم من؟ قال: ((أمك))، قال: ثم من؟، قال: ((أمك))، قال: ثم من؟ قال: ((أبوك)).

والحديث الآخر الذي قال رجل للنبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: من أبرُّ؟ قال: ((أمك))، قال:ثم من؟ قال: ((أمك))، قال: ثم من؟، قال: ((أمك))، قال: ثم من؟ قال: ((أباك)).

والإمام البخاري -رحمه الله- في كتابه الأدب المفرد وهو كتاب أُفرد في الآداب -آداب الشريعة الإسلامية- وهو كتاب حقيقة عظيم مبارك، للإمام البخاري لفتة بديعة جدا في هـٰذا الكتاب -كتاب الأدب- أول ما بدأ في كتاب الأدب، قال: بر الوالدين، أول باب يصادفك في كتاب الأدب المفرد للإمام البخاري، أول باب يصادفك: باب بر الوالدين، ثم ذكر هـٰذه النصوص أو جملة كبيرة منها.

وهـٰذه لفتة بديعة جدا يعني كأنه يقول: يا من تريد أن تتعلم الآداب وتتعرف عليها وتقف عليها، اعرف أن أحق الناس بها، الوالدان؛ أولاهما بها الوالدان. فأورد هـٰذه النصوص وبدأها بحديث ((من أحقّ الناس بحسن صحابتي..)) أو حديث من أبرُّ؟ قال: ((أمك))، إلى آخره.

ثم أورد هـٰذا الحديث (قَالَ: ((لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ، وَلَا مَنَّانٌ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَلَـا مُـؤْمِنٌ بِسِحْرٍ)).)؛ و(عاقٌّ) أي عاق لوالديه؛ وعرفنا معنى (العقّ) في اللغة أنه: القطع والشق، وأنّ من أهدر حقوق الوالدين وأضاعها، التي أمره الله – تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- بها فهو بمثابة من شقّ وقطع هـٰذا الحـق؛ ولهـٰذا سُمّي من يُضيّع حقوق الوالدين سُمّي عاقا في نصوص الشريعة.

قال: ((لا يدخل الجنّةَ عاقٌّ ولا منّان..)) (المنّان) الذي لا يعطي شيئا إلا بالمنّة على الناس، يمـنّ عليهم بما أعطاهم؛ فيُعطي ويُتبع عطاءه بالمنّ؛ يمتنّ على من أعطاه. ربما يوم من الأيام يعطي شخصا كأس ماء ثم كل ما قابله يقول: تذكُر كأس الماء الذي أعطيتك إياه اليوم الفلاني؟ كنـتَ عطشـانا عطشا شديدا وقدّمت لك الماء. وإذا قابله مرة ثانية وثالثة ورابعة يمنّ عليه بما أعطاه، حـتى أنّ مـن أعطي يتمنى في نفسه أنه ما عرفه ولا رآه ولا أخذ منه ويكرهه ويبغضه البغض الشديد. فهـٰذا المنان هو الذي يمنّ بالعطيّة: يُعطي ويمنّ؛ ولا يزال يُؤذي من أعطاه بما أعطاه، وربما يعطيه شيئا ويمنّ عليـه ويُطالبه بأشياء، وكلّ مرة يطالبه بشيء ويقول له: أنت نسيت اليوم الفلاني؟ نسيت الموقف الفلاني؟ فلا يزال يمنّ عليه بعطيّته.

فالمراد من هـٰذا: الذي لا يعطي شيء إلا منّةً؛ يمتنّ على من أعطاه ويؤذيه بهـٰذه العطية.

قال: ((لا يدخل الجنّةَ عاقٌّ ولا منّان..)) وهـٰذا فيه وعيدٌ شديدٌ ودلالة على أنه من الكبـائر. وقد عرفنا في ضابط الكبيرة أنّ من ضوابطها أن يُقال عن فاعلها (لا يـدخل الجنـة) أو (لا يشـمّ رائحتها) أو الوعيد عليها بالنار؛ فهـٰذا كله من العلامات التي تُعرف بها الكبيرة.

قال: ((وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ)) أي المداوم على شربها وتعاطيها؛ وليس هـٰذا خاص بالخمر بعينه بـل كل مسكر، كمدمن المسكرات والمخدرات الأمر فيه مثل ما جاء في الحديث.

قال: ((وَلَا مُؤْمِنٌ بِسِحْرٍ)) مؤمن به أي مصدّق. قد عرفنا أن التصديق بالسحر كفـر بـالله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- لأن الساحر لا يكون إلا كافر، ولا يُؤمن به ولا يصدق به إلا كافر مثله.

ثم أورد رحمه الله حديث عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما- أن أعرابيا (قَالَ: يَا رَسُولُ اللهِ! مَا الْكَبَائِرِ؟ قَالَ: ((الْإِشْرَاكُ بِاللهِ)). قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟، قَالَ: ((ثُمَّ عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ)). قَالَ: ثُـمَّ مَـاذَا؟ قَالَ: ((ثُمَّ الْيَمِينُ الْغَمُوسُ))..)

قوله: ((**الإشراك بالله ثم عقوق الوالدين**)) هـٰذا فيه ما سبق قَرْنُ حقّ الوالدين بحقه – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– وقَرْنُ حقوقهما بالإشراك به – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ–؛ وهـٰذا يدلّنا على أن العقوق إثم عظيم وذنب خطير.

وقوله: ((**ثُمَّ الْيَمِينُ الْغَمُوسُ**)) هـٰذا يدلّنا على أن اليمين الغَموس كبيرة من الكبائر؛ وهي سُميت غموسا قيل لأنها تغمس صاحبها في النار. وهي اليمين الفاجرة التي يقتطع بها الحالف أو المُقْسِم أموال الناس بغير حق، ويأخذها بغير حق، وإنما يحلف كذبا وجورا بالله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– أنّ هـٰذا له وهو كاذب؛ فهـٰذه يمين غموس، وقيل: إنها سُميت بذلك لأنها تغمس صاحبها في النار.

ثم أورد –رحمه الله– قول النبي –صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم– (((**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ وَلَا مُكَذِّبٌ بِالْقَدَرِ**)).) وهـٰذا بمعنى ما سبق؛ ولكن فيه ذكر التكذيب بالقدر؛ والتكذيب بالقدر كفر بالله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– كما قال ابن عباس – رَضِيَ اللهُ عَنْهُما–: "القدر نظام التوحيد" يعني لا ينتظم التوحيد ولا يستقيم التوحيد ولا يستقيم الإيمان إلا بالإيمان بالقدر. قال: "القدر نظام التوحيد فمن آمن بالله وكذب بالقدر فقد نقض تكذيبُه توحيدَه". فالتكذيب بالقدر كفر بالله.

والقدر، كما يقول الإمام أحمد، "قدرة الله"؛ فأين إيمان من لا يؤمن بقدرة الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– وأن الأمور بمشيئته وقدرته –عز وجل–.

ثم أورد –رحمه الله– حديث (**عِيسَى بْنُ طَلْحَة بْنُ عُبَيْدِ الله، عَنْ عَمْرُو بْنِ مرَّةَ الْجُهَنِيّ–رَضِيَ اللهُ تَعَالىٰ عَنْهُ– أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولُ اللهِ! أَرَأَيْتَ إِنْ صَلَّيْتُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَصُمْتُ رَمَضَانَ، وَأَدَّيْتُ الزَّكَاةَ، وَحَجَجَّتُ الْبَيْتَ، فَمَاذَا لِي؟ قال:** ((**مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالحين إِلَّا أَنْ يَعِقَّ وَالِدَيْهِ**)).). فهـٰذا السياق يدلّ على خطورة عقوق الوالدين حتى مع المحافظة على هـٰذه الفرائض فهو على خطر عظيم؛ يعني حتى وإن كان محافظا على هـٰذه الفرائض؛ لكنه عاقٌ لوالديه فهو على خطر عظيم.

نبّه المحقق أن زيادة (إلا أن يعقّ والديه) قال: " إلا أنه ليس في الحديث قوله: (إلا أن يعقّ والديه)".

ونرجو من بعض الإخوة التكرّم بمراجعة الحديث في مصادره العديدة، والنظر هل هـٰذه الزيادة هي في مصادر أخرى ثابتة صحيحة أو لا؛ لكن المحقق نبّه وهنا أشار إلى أن الحديث رواه ابن حبان والبزار؛ فنرجو من الإخوة مراجعة المصادر الأخرى التي فيها تخريج هـٰذا الحديث وهل لهـٰذه اللفظة وجود أو لا.

ثم قال: (حدثنا بَكَّار بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي بَكْرَة،قال: حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ مَرْفُوعاً: ((كُلُّ الذُّنُوبِ يُؤَخِّرُ اللهُ مِنْهَا مَا شَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ؛ فَإِنَّهُ يُعَجَّلُ لِصَاحِبِهِ)).

وهـٰذا أيضا فيه خطورة العقوق وأن العاق له عقوبة معجّلة وعقوبة مؤخرة يوم القيامة. والله -جلّ وعلا- يُعجّل للعاقّ عقوبةً إمّا بأولاد يعقونه أو بعقوبات أخرى تجري عليه جزاءً لعقوقه لوالديه.

ثم قال: (وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالداً إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكاً فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ)). وهـٰذا فيه أن الابن مهما قدّم من البرّ لا يدرك بعض جميل الوالدين. ومَن الذي يدرك جميل الحمل وشدة الوضع وفترة الرضاعة؛ يعني هـٰذه المدة التي هي قرابة الثلاث سنوات: تسعة أشهر حمل وسنتان للرضاعة. هـٰذه الفترة بالذات من الذي يُدركها مهما قدّم من الجميل والإحسان. والأم كانت تعاني المعاناة الشديدة مع الولد في هـٰذه الفترة وهي تتمنى صحته وعافيته وأن يُكرمه الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- بالحياة الطيبة. وبعض من يحصل منه فعلا برّ الوالدين في الكِبَر ويعاني من الأتعاب التي يلقاها في الإحسان إليهما وهو ربما في قرارة نفسه يتمنى أمرا آخر لم يكن قائما في قلب أمه لما كانت ترعاه وتُكرمه وتحسن إليه وترعى حقه.

ومن يقرأ بالكتب وأيضا ما يأتي فيها من أخبار فيما يتعلق بالبِرّ وأخبار فيما يتعلق بالعقوق، في التاريخ من النماذج والشواهد الكثيرة التي تدلّ على هـٰذه المعاني والحقائق المشار إليها هنا.

فقوله: ((لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالداً إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكاً فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ)) يعني مهما قدّم من البر والإحسان ما يستطيع أن يُدرك حق الوالدين إلا أن يشتريه، يجده مملوكا رقيقا فيُعتقه.

قال: (وَعَنْهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ قَالَ: ((لَعَنَ اللهُ الْعَاقَّ لِوَالِدَيْهِ)). وقد عرفنا أن الذنب إذا ذُكر صاحبه باللعن في القرآن والسنة، فهـٰذا من الدلائل على أنه كبيرة، واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله.

ثم أورد المصنف -رحمه الله- قول النبي -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم- ((**الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ**)) وهـٰذه لفتة جميلة جدا من المصنف -رحمه الله- لما ساق الأحاديث ومن القرآن ومن السنة ببرّ الوالدين ختمها بهـٰذه اللفتة الرائعة، قال: ((**الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ**)) يعني وأنت تقرأ هـٰذه النصوص وهـٰذه الدلائل في حق الوالدة فتذكّر قول النبي -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم- ((**الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ**))؛ فهـٰذا يعني أن لها من البر والإحسان والصلة والتلطّف وحسن المعاملة شيئا كبيرا، فهي بمترلة الأم.

فإذن هـٰذه لفتة جميلة جدا من المصنف -رحمه الله-.

ثم ختم الكلام على هـٰذه الكبيرة بذكر بعض الآثار وفيها من الأخبار التي تُروى عن بني إسرائيل وعن الكتب السابقة.

والمصنف -رحمه الله- لم يذكر هـٰذه الآثار ليعتمد عليها في الباب؛ لأن مثل هـٰذا لا يُعتمد ولا يُعد عمدة في الباب؛ ولكن جرت عادة العلماء أن مِثل هـٰذا ومِثل بعض القصص وبعض الأخبار ومِثل بعض الآثار والوقائع تُذكر على سبيل الاستئناس، ولهـٰذا يقولون (ذُكر للاعتضاد لا للاعتماد) أو (ذُكر استئناسا).

فالمصنف ذكر هـٰذه الأشياء لا لأنها عمدة في الباب؛ بل العمدة الآيات والأحاديث التي مرت؛ ولكن هـٰذه ذكرها -رحمه الله- على وجه الاستئناس، أثرُ وهب بن منبه وكعب والأثر الأخير الذي ختم الذي ختم به هـٰذه الترجمة.

ونسأل الله -عز وجل- أن يعيننا على البر وأن يُعيذنا من العقوق وأن يهدينا سواء السبيل، وأن يجزي والدينا عنا خير الجزاء، وأن يرحمهما كما ربيانا صغارا.

۞۞۞۞